التراث الأدبي

والقيم

مقاربة نقدية

إعداد

د.حبيب بن معلا اللويحق المطيري

الأستاذ المشارك بقسم البلاغة والنقد

ومنهج الأدب الإسلامي بكلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تقديم :

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده وبعد:

ثَمَّ ظاهرة عالمية تنتظم ثقافات كثيرة في عالمنا المعاصر تتمثل في عودة جماعية على مستويات الإبداع، والنقد، والفكر، والآداب، والعلوم الإنسانية، والاجتماعية، والثقافية؛ للتراث الروحي من جهة، وللتراث الثقافي من جهة أخرى[١] إحياءً مجردًا في حين، وإحياءً مقترنًا بأبعاد فكرية تهدف إلى التبرير لواقع معين أو لبعث نهضة جديدة في أحايين كثيرة.

ولم تخل الثقافة العربية من هذه العودة المحمومة للتراث بكل أبعاده واتجاهاته؛ ابتداء بالنص وانتهاء بالنسق الاجتماعي؛ فانتظمت الأمة مشروعات ضخمة تهدف إلى إعادة بعث الروح في الإرث الحضاري المادي، والإرث الروحي، والإرث الثقافي مع اختلاف أسباب هذا البعث وآلياته وآفاقه وأثره في البناء الحضاري للأمة؛ والذي يعنينا هاهنا: التراث الأدبي في مجاميع الأدب الكبار التي صنفها جُمّاع الأدب الأوائل الذين سودوا صفحات كثيرة في أشعار العرب وأخبارها وآثارها وأوصافها ورجالها، وظهر اسم الأدب الجامع لكل هذا [٢].

---

[١] للمزيد: انظر على مكي، إحياء التراث العالمي، دار الآفاق، ط١، ٢٠٠١، م ص ٤٢، وما بعدها. وانظر: د.سفر الحوالي، ظاهرة العودة العالمية للتراث الروحي، المحاضرة ضمن إصدارات مهرجان الجنادرية ١٤٠٨هـ ، ص ٢٤٦.

[٢] انظر في مفهوم الأدب في مادة الكلمة: ابن منظور، اللسان، ٢٠٦/١، ط ١٤ ، ١٤٢٥هـ. وابن خلدون، المقدمة، طبعة مصر، ص ٦٤٧. وبدوي طبانة،

إن الإحياء العربي للتراث الأدبي المتنوع بكل تجلياته المعرفية والإبداعية قد ظهر مرارًا على ثلاثة أشكال:

الأول: الاستدعاء التاريخي للشخصيات أو الأحداث أو القضايا في الإبداع؛ والهدف منه يختلف باختلاف الفكر الذي ينتمي إليه صاحب النص[١]، وغير خاف أن استحضار التاريخ للاعتبار والاتعاظ بأحداثه، أو لإسقاطه على أحداث معاصرة، أو تحميله قضايا المجتمعات يعد وسيلة فنية رائعة؛ يلج بها المبدع في عوالم لم يكن مستطيعًا الولوج فيها بالحديث الصريح المجرد.

الثاني: تحقيق هذه المصنفات الكبار التي تجمع الأدب والأخبار والأشعار والآثار ونشرها؛ فمثلا- مع بدايات ما يسمى (عصر النهضة)- أعيدت طباعة أمّات الكتب العربية؛ حيث طبعت المطبعة الأميرية في زمن محمد علي طائفة ضخمة من كتب التراث العربي؛ منها: المثل السائر لابن الأثير، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وتاريخ ابن خلدون ومقدمته، ولسان العرب لابن منظور، والعقد الفريد لابن عبدربه، وفقه اللغة للثعالبي، ووفيات الأعيان لابن خلكان، وحياة الحيوان للدميري، ونفح الطيب للمقري، وغيرها.

ثم توالى الجهد بعد ذلك، وتولت المجاميع اللغوية والمطابع المختلفة نشر التراث العربي الضخم، ونشط المحققون في نشر كل ما

=

دراسات في نقد الأدب العربي، دار الثقافة، الطبعة السادسة، ١٣٩٤هـ ، ص ١٣، وما بعدها.

[١] انظر – مثلا: نجيب الكيلاني، عمر يظهر في القدس، دار الرسالة ١٣٩٨هـ. وميخائيل عيد، أغاني الحلاج، دار بيروت، ١٩٨١م .

يقعون عليه؛ فظهر: زهر الآداب للحصري القيرواني، وخزانة الأدب للبغدادي، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والبيان والتبيُّن للجاحظ، والحيوان له، والكامل للمبرد، وأدب الكاتب لابن قتيبة، والمستظرف للأبشيهي، وصبح الأعشى للقلقشندي؛ مما يوحي بضخامة هذا الإحياء في شكله الظاهر الذي سمي التحقيق.

الثالث: تصنيف كتب تؤرخ للأدب العربي، وتذكر مراحله التاريخية، وأطواره الفنية، والعوامل المؤثرة فيه؛ سياسية، واقتصادية، وفكرية، واجتماعية، وقد بدأها المستشرقون مثل:

١- يوسف هامربروجستال الذي طبع له في فيينا كتاب في (تاريخ آداب العرب) من ٧ أجزاء سنة ١٨٥٠م.

٢- ألفريد فون كريمر النمساوي الذي صنف (مختصر في تاريخ عمران المشرق في عصر الخلفاء) الذي طبع في فيينا سنة ١٩٧٧م.

٣- أرتبنوت الإنجليزي الذي صنف في التاريخ والأدب العربيين في سنة ١٨٩٠م.

٤- إدوارد فانديك، وفيليب قسطنطين اللذين ألفا في تاريخ العرب وآدابهم وطبع في (بولاق) سنة ١٨٩٢م، وغيرهم.

ثم توالت المؤلفات العربية المؤرخة للأدب، مثل:

١- تاريخ آداب العرب للرافعي.

٢- تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان.

٣- الوسيط في الأدب العربي وتاريخه لأحمد الإسكندراني ومصطفى عناني.

٤- تاريخ الأدب العربي لأحمد الزيات.

٥- تاريخ آداب العرب لفؤاد سزكين.

٦- تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف، وأمثال ذلك كثير.

لقد كان موقف طائفة من المتلقين في الأوساط الثقافية العربية: النظر إلى هذا التراث بازدراء والحط من قدره، وممن يوحي فكرهم بهذا: لويس عوض، وسلامة موسى، وزكي نجيب محمود [١]، وثَمَّ طائفة أخرى قدَّست كل هذا التراث، وعدَّته شاهدًا حضاريًّا ضخمًا على ثقافة الأمة وخلودها وإرثها الأممي الكبير، ودعت لاهتمام النشء به وإعادة إحيائه جملة واحدة دون تمحيص، وطائفة ثالثة اصطفت بعض ما في هذا التراث من تجاوزات قيمية وعقدية ومسلكية ونفخت فيها الروح لجعلها حجة في تغيير الواقع المعاصر.

ويهدف هذا البحث إلى مقاربة نقدية تقفنا على هذا التراث ومدى قربه أو بعده من المصداقية ومن تجسيد القيم الممثلة لهوية الأمة وحضارتها، وبيان الموقف الحقيقي من التراث الأدبي الضخم الذي تتعدد أنماطه المعرفية ومعاييره الذوقية ومظاهر التزامه بتعدد كتابه ومروياته وأحداثه وأشعاره وأخباره وآثاره.

---

[١] للمزيد : انظر : محمود شاكر ، أباطيل وأسمار ، جامعة الإمام ١٤٠٥ هـ. محمود شاكر ، نمط صعب ونمط مخيف ، دار الرسالة ، ١٤٠٥ هـ . محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، دار الفكر ١٩٨٠ م.

إن المقصود –هاهنا – ليس بيان التجاوزات القيمية في أمَّات كتب التراث، وليس حصر أنماط التلقي لمرويات كتب التراث في ثقافتنا المعاصرة؛ بل محاولة لقراءة العنوانات الرئيسة في توصيف التراث الأدبي عند العرب من جهة التوثيق والمرجعية العلمية وطرائق التصنيف لبيان سبب هذه التجاوزات القيمية الضخمة فيه، ثم تحديد رؤية مقترحة للتعامل مع كتب التراث في مقاربة يمكن أن تكون عادلة.

١-مفهوم التراث:

يرى ابن منظور في لسان العرب أن الورث، والإرث، والميراث، والتراث، كلها بمعنى واحد، وفي معنى التراث قال: "ما يخلفه الرجل لورثته"[١].

والتراث: هو الإرث الموروث في أي شأن، ويتمايز بحسب ما يوصف به؛ فالتراث الإسلامي هو: "ما ورثناه عن آبائنا من عقيدة، وثقافة، وقيم، وآداب، وفنون، وصناعات، وسائر المنجزات الأخرى المعنوية والمادية، ويشمل كذلك الوحي؛ القرآن والسنة؛ الذي ورثناه عن أسلافنا"[٢].

والتراث العربي أوسع مدلولا من حيث الزمن؛ إذ يضرب بجذوره إلى ما قبل الإسلام مع أنه يضيق إذا ما نظرنا إلى العرق والمكان؛ فلا يدخل التراث الفارسي، ولا التراث المغولي، ولا تراث ما بين النهرين تحت مفهوم التراث العربي.

وحين نتحدث عن التراث في السياقات الأدبية فإننا نعني ما ورثناه عن أسلافنا من منتج ثقافي وأدبي يصف أخبارهم وآثارهم وأيامهم وينقل إبداعهم من شعر ونثر؛ وبناء عليه فإن كل مرويات الأدب من أخبار وقصص وأمثال وأشعار وأوصاف ورسائل ومؤلفات وتوقيعات، وكل الشخصيات الواردة في النصوص المتعددة أو الصانعة لكل هذا، وكل المدونات على اختلاف فنونها داخلة تحت اسم التراث.

وليس اسم التراث محتملا لمعنى مدح أو ذم، بل هو مصطلح وعائي ظرفي يختلف الحكم عليه باختلاف ما فيه.

---

[١] ابن منظور، لسان العرب، دار القلم ١٩٨١م ، (٨ – ٦٤).

[٢] أكرم العمري، في التراث، مجلة الفيصل، ١٤٠٧هـ ، العدد ٢٦٦ ، ص ٨٢.

٢-توظيف التراث:

لقد تنوع توظيف التراث في ثقافتنا العربية المعاصرة تنوعًا كبيرًا بتنوع الموظفين لهذا التراث، المستدعين له، العاملين على إحيائه؛ فظهر توظيف الشخصيات التراثية على اختلاف اتجاهاتها وأفكارها ورمزيتها؛ ويختلف هذا التوظيف في نسقه الإبداعي وشكله الرمزي باختلاف الاتجاه الذي يمثله النص وصاحبه والمحيط الذي نشأ فيه النص؛ فقد استعمل بدر شاكر السيّاب شخصية "قابيل" رمزًا للجاني، و"هابيل" رمزًا للتضحية؛ ووظف ذلك في تشخيص اللاجئ الفلسطيني بهابيل، والجناة الذين شردوه بقابيل، انظره يقول:

"قابيل أين أخوك ؟ أين أخوك ؟

جمعت السماء

آمادها لتصيح، كورت النجوم إلى نداء :

قابيل، أين أخوك؟

أين أخوك ؟

يرقد في خيام اللاجئين...."[١]

إذ ظهر هاهنا استحضاره لشخصية "هابيل" رمزًا للتضحية و"قابيل" رمزًا للجناية والقتل وحاول إسقاطها على الواقع المعاصر في أمتنا.

وفي الموروث الصوفي الباطني، نجد علاقة بين التجربة الصوفية الباطنية، والتجربة الشعرية؛ ولقد ظهر عند بعض الشعراء شعور بمدى قوة هذه الصلة التي تربطهم بالتجربة الصوفية، وعبروا عن هذا

---

[١] محمد المالحي، أغاريد السياب، دار الخضراء ، بغداد ، ١٩٨٣م ، ج ١١ ، ص ٧٨.

الإحساس في شعرهم، وحاولوا توظيف الشخصيات التي تجسد هذا في تراثنا.

ويعد "الحلاج" الذي صلب ببغداد لِستٍّ بقين من ذي القعدة سنة ٣٠٩ هـ[١]، واحدًا من أهم الشخصيات التراثية التي استحضرها الشعراء المعاصرون من اليساريين وأضرابهم؛ وتظهر شخصية الحلاج عند بعض شعرائنا من جانبين هما:

الأول: جانب ارتباط شخصية الحلاج بفكرة محاربة الإسلام والكيد له.

والثاني: جانب له بعد سياسي برفض الحلاج للنظام السياسي.

ومعلوم أن الحلاج صوفي باطني وثني ادعى الألوهية، وقد وظفه الشعراء الذين يهدفون إلى إحياء الرموز المتمردة؛ كما نرى اعتناء أدونيس بالحلاج وجعله رمزًا على خلود الكلمة المناضلة وانتصارها كما يزعم بالقول في قصيدته "مرثية الحلاج":

ريشتك المسمومة الخضراء
ريشتك المنفوخة الأوداج باللهيب
بالكوكب الطالع من بغداد
تاريخنا ... وبعثنا القريب ...[٢]

ولا يكتفي الشعر العربي المعاصر بتوظيف الرموز المختلفة من عالم الواقع بل يأخذ من الأسطورة والحكاية الشعبية مثل:

---

[١] انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء ، الحسين الحلاج، دار الرسالة، ١٤١٢هـ ، ج٧ ، ص ١٨٦.

[٢] أدونيس، أغاني مهيار، دار البعث العربي، ١٩٦٩م ، ص ٦٨.

١- ألف ليلة وليلة.

٢- السير الشعبية: كالسيرة الهلالية، وعنترة، وسيف بن ذي يزن.

٣- كتاب "كليلة ودمنة".

ومن شخصيات ألف ليلة وليلة الأكثر تكرارًا، شخصيات "شهرزاد وشهريار"، ثم "سندباد البحري"، وقد أخذت دلالة السندباد ثلاث دلالات عامة أسقطها الشعراء على مغامراتهم هي: الدلالة الفنية، والسياسية، والحضارية.

وكذلك توظيف شهرزاد في شعرنا المعاصر؛ رمزًا للمرأة التي مازالت تعيش من أجل تحقيق حياة مادية باذخة تفيض بالترف، والدعة، والخمول، حتى وإن لم يتجاوز دورها في هذه الحياة كونها جارية تباع وتشترى، وقد ارتبط اسمها في أذهان بعض الشعراء بذلك.

إن توظيف الشخصية التراثية واستدعاءها وترميزها في الشعر العربي المعاصر يعني: استخدامها تعبيريًّا لحمل بُعد من أبعاد تجربة الشاعر المعاصر؛ أي أنها تصبح وسيلة تعبير وإيحاء في يد الشاعر يعبر بها عن رؤياه المعاصرة على مرحلتين:

١- مرحلة التعبير عن الموروث.

٢- مرحلة التعبير بالموروث.

وبذا يكون "توظيف الشخصية التراثية في الشعر العربي المعاصر، هو آخر أطوار علاقة شاعرنا المعاصر بموروثه"[١]، وهذه العلاقة صيغة أخيرة مرت بعدة أطوار حتى انتهت إلى صيغة "توظيف

---

[١] أحمد عارف، التراث ومتغيراته الثقافية، دار أطلس ، ٢٠٠٨م ، ط١ ، ص ١١١.

الشخصية التراثية" أو "التعبير بها"، وهي صيغة تقابل صيغة "التعبير عن". وكما هي في مقابلة تسجيل الشخصية التراثية؛ وهذه الصيغة تعني: سرد أحداث حياة الشخصية ونظمها نظمًا تقريريًّا[١].

وهناك توظيف آخر للتراث هو: إعادة إحياء التراث كاملا واقتناص مواقف التمرد منه، وتوظيفها في الصراع الفكري المعاصر؛ وهذه الأخيرة تحمل نسقًا انتقائيًّا يصطفي من التراث ما يمكن استثماره في الاستقطاب الثقافي الحاد الذي تشهده الساحة الثقافية المعاصرة مما يضاد القيم ويوحي بأن التراث يجسد واقعًا يتسامح فيه مع المعالنة بالكبائر والفجور بل المحادة لله ورسوله بتبني الأفكار التي تتمرد على العقيدة وتذكي العدمية أو مصادمة النصوص الصريحة أو تتبنى آراء فلاسفة الباطنية.

إن هذا التراث الزاخر بالعطاء الذي يعد لسانًا ناطقًا بالأخبار والآثار لا يصح إهداره كما يفعل الشعوبيون، كما لايصح رفعه فوق قدره وجعله صورة صادقة للعرب الأوائل لم يعرها التبديل والتحريف.

إننا نجد في الحركة الثقافية العربية حركة محمومة لإعادة إحياء التراث العربي لا لاقتباس جذوة المعرفة منها، وإنما لأهداف منها:

١- نشر التراجم وتكرار التنويه بشخصيات عرفت في التاريخ الإسلامي بالإلحاد كابن الراوندي، والحلاج، وابن سبعين، وابن عربي، ومهيار الديلمي[٢]، وذلك عن طريق النشر المجرد أو التنويه

---

[١] السابق ص ١٢١.

[٢] انظر مثلا : علي أحمد سعيد (أدونيس) : أغاني مهيار، دار مجلة شعر، بيروت ١٩٦١م . صلاح عبدالصبور ، مأساة الحلاج ، دار الشروق ١٩٨٥م ، مسعود الماحي، أعلام الثورة في التراث، دار القلم ١٤٢٢هـ .

والترميز لجعلهم قدوة تحتذى وتسلك سبيلها أو لمحض التوظيف الفني.

٢- تبرير المجون والانحدار الأخلاقي بدعوى تسامح التراث الذي ترد فيه أخبار الزنا ودواعيه، واللواط، وعشق المردان، وشرب الخمرة، والاستهزاء بالدين، وتبذل النساء، والغناء، وإتيان البهائم، والشهوات المجردة، والألفاظ القذرة، ولا تواجه ضغطًا اجتماعيًّا كما يحدث الآن[١].

٣- الاستشهاد بالقصص فيه وعدها دليلاً شرعيًّا لإقامة حكم ما خصوصًا إذا نُسبت إلى عالم فقيه أو صحابي، أو رُفعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم [٢].

٤- التلذذ بالأوصاف الحسية للنساء وإشاعة الثقافة الإباحية التي تهدف إلى تسويغ العلاقات المحرمة؛ وهذا ظاهر مشهود في كل مجاميع الأدب الكبار.

ومن أهم المشروعات العربية لإحياء التراث على هذا النمط:

=

[١] انظر مثلا : أدونيس، الثابت والمتحول ، دار آداب ١٩٨١ م ،٢٦٢/٢ .

[٢] السابق ص ٢٦٢.

١- المعهد التونسي لإحياء التراث، الذي أعلن أحد القائمين عليه أن أحد أهم

أهدافه: (بعث التراث العربي المتسامح لتنوير المجتمع ضد الظلاميين)[١].

٢- مشروع (التنوير) في مصر الذي يتبناه طائفة من المفكرين التغريبيين؛ حيث هدف لنشر (الوجه المشرق من التراث)، الذي يرى هذه الانحرافات العقدية المخالفة لمسلّمات المحكمات الشرعية بروح تسوّغ مثل هذه الانحرافات والفكرية ولا تثرب عليها، وقد دعا أرباب هذا الاتجاه إليه، وتولى الدفاع عنه مرارًا في الصحف المهاجرة والترويج له د. جابر عصفور [٢] وتلاميذه، وفي مقابل هذا كله هناك نهضة مقابلة تهدف إلى إعادة النظر في هذا التراث وإقامة مشروعات تصحيحية ولكنها فردية وتتسم بالإحصاء العددي للأخطاء[٣].

إن التراث الأدبي في مجاميع الأدب الضخمة ودواوينه الكبار يزخر بما يستنكف عنه العقلاء، ولا يتصور مُربٍّ قط أن يعرضه على الكبار فضلاً عن الناشئة. يقول محمود شاكر: (فإننا نجد كتبًا من أعظم كتب الأدب تحمل على الخلفاء من غث الأخلاق ما تناقضه سير هؤلاء الخلفاء كالذي يروون عن الرشيد – وهو بالمنزلة من الشرف والعلم والسياسة

---

[١] انظر : جريدة الحياة ، العدد (١٧١٤) في ١٩٧٧/١١/٦ م ص ١٨.

[٢] انظر : جريدة الحياة ، الأعداد (٢٤١٢ ، ٢٥١١ ، ٢١٣٢).

[٣] انظر – مثلاً – وليد الأعظمي، السيف اليماني في نحر الأصفهاني، صاحب الأغاني، دار الإيمان، ١٩٨٥م.

وطول الانبعاث للغزو والحج – من معاقرة الخمر والملاهي والاطلاع على الحرم واستباحة الأعراض وغير ذلك مما لا يمكن أن يصح بوجه من الوجوه)[١].

ولك أن تقرأ (ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي) أو (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني أو غيرهما فستجد شيئًا كثيرًا من هذا التجاوز القيمي الذي يحار المتلقي الانطباعي كيف تمالأ على إيراده هذا الكم الضخم من الرواة والمدونين دون حسم لهذا الأمر الخطير الذي يصيب مروياتنا بالداء.

---

[١] عادل جمال، جمهرة مقالات محمود شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ٥ ، ج١ ص٥٦.

إن هذا التجاوز يمكن تفصيل أغلبه فيما يلي:

أولاً: المخالفات العقدية: وهي أنواع :

أ- ما يتصل بالإيمان بالله تعالى كبعض المرويات التي تورد للإضحاك على ألسنة بعض الممرورين والسفهاء مما لاينبغي إطلاقه في حق الله تعالى[١].

ب- ما يتصل بالفأل والطيرة والتشاؤم، وهذا كثير متكرر؛ لا تكاد تجد كتابًا من مجاميع الأدب الكبار إلا وهو زاخر بمثل هذا، ولا يورد على سبيل النعي على أصحابه أو وصف حال الجاهلين بل يورد على أنه حقائق، ولك أن تطالع ذلك في كل مرويات الأدب[٢].

ج- ما يتصل بعقيدة الولاء والبراء التي هي من أهم عقائد الإسلام، ومخالفات هذا الباب كثيرة تكاد تكون في كل كتاب وفصل [٣].

د- الوقوع في الصحابة – رضي الله عنهم وأرضاهم- والخوض فيما شجر بينهم على وجه فيه إساءة لهم أو وصفهم بما لا يليق[٤].

ثانيًا: المخالفات المسلكية : وهي أنواع :

أ- عرض قصص الفواحش في سياق ترغيبي ومنها:

---

[١] انظر : الحصري القيرواني ، زهر الآداب ، تحقيق د . زكي مبارك ، دار الفنون ج ٢ ص ٥٠١.

[٢] السابق ص ٥٢٤ وما بعدها.

[٣] انظر : الأغاني ص ٤٦-٢١١-٢٢١-٤١٣ وغيرها.

[٤] انظر : السابق ص ١١٨- ٢٣٦ ، وغيرها .

٥ السابق : ص ٣٣٤- ٣٤٤ ، وغيرها.

١- الزنا[١]

٢- اللواط[٢]

٣- دواعيهما [٣]

٤- الأوصاف الحسية[٤]

٥- إتيان البهائم[٥]

٦- العشق المحرم[٦]

ب- عرض مجالس الشراب وعرض الخمرة في سياق ترغيبي.

ج- تبرير المحرمات وتحسين فعلها.

د- تمجيد الانحراف والثناء على المنحرفين [٧].

هـ - مجالس الغناء واللهو وتحسين السماع [٨].

ثالثًا: المخالفات اللفظية : وهي كثيرة منها :

---

[٢] انظر : الحصري القيرواني ، زهر الآداب ، ج ٢ ص ٣٤٤ ،٥١٦ ، ٥٤٣ ، وغيرها .

[٣] انظر : الأغاني ص ٤٦- ٢١١-٢٢١-٤١٣ .

[٤] انظر المثال التفصيلي في هذا البحث ص ١٤.

[٥] انظر: الأغاني ص ١١٨.

[٦] انظر: السابق ص ٦٨.

[٧] انظر: السابق ص ٢٢٦، (٩ ، ١٠ ، ١١، ١٢).

[٨] انظر المثال التفصيلي في هذا البحث ص ١٤.

الكذب، اللعن، القسم بغير الله، السخرية، ذم الدهر، الاعتراض على أقدار الله، ورود ألفاظ العورات والفواحش، لمز الصلحاء والأخيار، العبث ببعض المصطلحات الشرعية، تحسين اللهو وتقبيح الجد والحزم، ربط المقاصد الدنيوية بتحقيق المطالب الدونية مجردة عن مقاصد الآخرة، وغير ذلك.

إن مثل هذه التجاوزات الضخمة أكثر من أن يحصرها بحث مختصر لكنها موجودة ظاهرة، يجدها كل من يقرأ في تراثنا الأدبي، وكثير من العقلاء يجمجم ويدير كراهتها في نفسه لكنه لا يجرؤ على نقد التراث.

وللتمثيل على كل ذلك إليك هذا الجدول :

الكتاب : ثمرات الأوراق [١]

المؤلف : ابن حجة الحموي.

م	الموضوع	العدد
١-	المخالفات العقدية في جانب الإيمان بالله	٥٨
٢-	المخالفات العقدية في جانب التوكل على الله	٢١٤
٣-	المخالفات العقدية في جانب الولاء والبراء	٦٦
٤-	المخالفات العقدية في جانب الصحابة وما شجر بينهم	١٤١
٥-	المخالفات العقدية في جانب النبوة	٣
٦-	المخالفات المسلكية : الخمرة	٤٢١
٧-	المخالفات المسلكية : الزنا ودواعيه	٣٣٨
٨-	المخالفات المسلكية : اللواط ودواعيه	٩١
٩-	المخالفات المسلكية : الغناء ومجالس اللهو	١١٨
١٠-	المخالفات اللفظية	أكثر من أن تحصى

إن المشكلة الحقيقية لا تكمن في وجود هذه المخالفات في هذه الكتب ولكنها تكمن في تعاملنا نحن مع كتب التراث واعتبارها أثرًا مقدسًا

[١] ابن حجة الحموي ، ثمرات الأوراق ، دار ابن حزم ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .

كل ما فيه صائب. إن بعض كبار كتابنا غلوا في تمجيد التراث،[١] وتلقاه بعضهم بعقلية القطيع الذي يتلقى كل ما يشار إليه به بالموافقة، مع أن كثيرًا مما فيه أخبار محتملة للصدق والكذب، بل الغالب على كثير منها الكذب.

إذن كيف نقرأ التراث؟ وكيف نرى علاقة التراث بالقيم؟ وللجواب المجمل على ذلك يقال:

ينبغي علينا أن نتعامل مع كتب التراث وفقًا للحقائق التالية:

١- أن هذه الكتب في الأعم الأغلب إنما صنفت لتسلية طبقة معينة مرفهة من المجتمع، وهم الولاة والأمراء وأبناؤهم؛ أي أنها لم تصنف للعلم ونشره؛ وللتمثيل على هذا: قلّب أي مقدمة لكتاب تراثي من هذه المجاميع الضخام تجد مصداق الكلام، بل إن الكاتب قد ينقطع سنين متطاولة يجمع ويتسقط النوادر والطرائف والمستغربات والمستملحات لأحدهم ليصنف له كتابًا، كما انقطع أبو دعامة العبسي للبرامكة ليصنف لهم كتاب (الشعر والشعراء) (١)، ولك أن تنظر – مثلا – في كلام أبي علي القالي في مقدمة الأمالي؛ يقول: (أما بعد فإني لما رأيت العلم أنفس بضاعة أيقنت أن طلبه أنفس تجارة فاغتربت للرواية ولزمت العلماء للدراية، ثم أعملت نفسي للسعي في جمعه، وشغلت ذهني بحفظه حتى حويت خطيره وأحرزت رفيعه... وجامعه ومقتنيه ربيع العفاة وسم العداة ذو الفضل والتمام العقل

---

[١] انظر : عبد الرحمن السعوي ، تراثنا العبقري ، الخطوة الأولى ، ١٤٢٥ هـ ٦٦.

٢ أبو علي القالي ، الأمالي ت أبي الفضل إبراهيم ، دار الغد ، ٢٠١٠ ص٣.

والكمال المعطي قبل السؤال والمنيل قبل أن يستنال الحكم ولى عهد المسلمين وابن سيد العالمين أمير المؤمنين عبدالرحمن بن محمد)،[٢] وما دامت كذلك فلا يهمها التوثيق العلمي، وإنما حشد النفائس والطيبات، ولا بأس من إثارة الغرائز وذكر الألفاظ الخادشة والمستفزة لتزجية أوقات النبلاء، ولك أن تتصور كاتبًا من هذا العصر يتسقط الأخبار من العامة والسوقة من المجالس للتسلية هل يبقى عنده ضوابط لم تطالبه الحياة الثقافية بها؟

إن المتخصصين يدركون أن كتاب الأغاني للأصفهاني– مثلا – من الكتب التي لا يعول عليها في كثير أو قليل من الحقائق، وكان هذا الكتاب في مواطن كثيرة تكأة المستشرقين في النيل من التراث؛ إذ هو تجسيد للكذب والدس والتحريف التاريخي والأدبي والعقدي في أوضح صوره.

ولعل من يدافع عن مصداقيته من الباحثين يتمسك بحجة المحافظة على التراث الذي يرونه في مثل هذا لكنهم في المقابل لا ينظرون للتراث الفقهي والعقدي والنحوي والبلاغي النظرة نفسها، وهذا لا يعني أن يهدر الكتاب ولكن لابد من أن يعلم أنه من أبعد ما يكون عن التوثيق العلمي والاهتمام بالقيم.

ولم يكن هؤلاء المصنفون على بابة واحدة في الديانة والأمانة؛ بل نقل عن بعضهم وما لا يحسن؛ فمثلاً هذا شيخ العربية أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ قال عنه تلميذه ابن قتيبة: (هو من أكذب الأمة وأوضعهم

لحديث) [١]، وقال عنه ابن حجر – رحمه الله – : (سبحان من أضل هذا على علم، وهذه والله صفة كتب الجاحظ كلها)[٢].

٢– أن طائفة كبيرة من مصطفي هذه الكتب نصوا على أنهم يجمعون جمعًا، وأنهم لا ينحون منحى علميًّا بل ترويحيًّا؛ قال ابن قتيبة: (ولم أر صوابًا أن يكون كتابي هذا وقفًا على طالب الدنيا دون طالب الآخرة، ولا على خواص الناس دون عوامهم، ولا ملوكهم دون سوقتهم فوفيت منهم كل فريق قسمه ووفرت عليه سهمه، ورسمه)[٣]؛ فهو يصرح هاهنا بأن سياقه أميل للإمتاع والتسلية.

وفي موضع آخر يقول: (واعلم أنك إن كنت مستغنيًا عنه بتنسكك فإن غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج إليه، وإن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك)[٤].

ويقول: (إذا مر بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعر خدك وتعرض وجهك فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم)[٥].

٣– أن مصادر هؤلاء الجماعين، إنما هي أفواه الرواة وحديث المجالس وهذا فيه الغث أكثر من السمين، ولم يزعموا يومًا أنهم يجرون بحثًا علميًّا، يقول ابن قتيبة: (واعلم أنا لم نزل نلاقط هذه الأحاديث في

---

[١] الذهبي ، ميزان الاعتدال ، دار الرسالة ، ١٩٨١ م ٢ / ٢١٢ .

[٢] السابق ٢ / ٢١٣.

[٣] ابن قتيبة عيون الأخبار ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٦هـ ، ج١ ، ص٤ .

[٤] السابق.

[٥] السابق ٤٦ .

الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا في السن والمعرفة، ومن جلسائنا وإخواننا، ومن كتب الأعاجم وسيرهم وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم، وعمن هو دوننا غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سنًّا لحداثة ولا عن الصغير قدرًا لخساسته، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها فضلاً عن غيرنا)[١] هذا مع كون ابن قتيبة من أعلم هؤلاء الجمّاع وهو بلاغي أهل السنة المعروف [٢] فكيف بالرافضي الأصفهاني والمعتزلي الجاحظ؟ وقليل من هؤلاء الجمَّاع من كان يسند ما كتب مثل الثعالبي في يتيمة الدهر.

إن التراث العربي لم يتمثل به فصل حقيقي بين الإبداع والانحراف الأخلاقي، فأي كتاب ينقل أخبار الأدباء نجده يركز على المنحرفين منهم وينقل مجالس لهوهم وشربهم، وسر هذا يكمن في عدم تحرير العلاقة الحقيقية بين الإبداع والدين، وكون الشاعر والأديب المسلم مطالبًا بتمثل القيم الإسلامية في داخله لئلا يقول قولاً يكون وبالاً عليه في الآخرة؛ يقول ابن عبدالبر معلقًا على كلام للجاحظ: (هذا عندي من أكاذيب الأعراب وحماقات عمرو بن بحر ومجونه)[٣].

٤- الاستقراء الناقص الذي يشوب التأمل التاريخي لأي حقبة أدبية، ويتأكد عند النظر الانتقائي لتراثنا الذي يقوم على الكتابة الأيديولوجية للتراث في أنساق لا تتمحض للحقيقة العلمية.

---

[١] السابق ص ٤٨ .

[٢] انظر : محمد الصامل ، المدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة، دار إشبيلية – ط١ ، ١٤١٨هـ ، ٢٤ .

[٣] سليمان السبيعي ، درر ابن عبد البر، دار ابن الأثير ١٤٢٣هـ ، ط ١ ، ص ٣٣.

إذا استُصحب هذا وُضعت كتب التراث موضعها فلم تهدر قيمتها، لتحرم الأمة ما فيها من نفائس، ولم يرفع قدرها لتكون شاهدًا حضاريًّا لنقض كثير من أحكام الإسلام.

الخاتمة :

بعد هذه النظرات يمكن القول:

إن التعامل مع التراث أمر يبلغ درجة الضرورة في أمتنا وثقافتها، ولا يمكن لأي أمة أن تتقدم إلا إذا رعت تراثها، ولكنها يجب أن تتعامل مع هذا التراث بعقلية ناقدة، تعلم أن من جملة تراثها الأدبي من يعادي قيمها وفكرها، فلابد من نظر وإعمال ذهن من جهة، كما لابد من إحياء التراث والاهتمام بجمعه والنظر فيه.

والله الموفق.

المصادر والمراجع :

١- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني . دار التراث، ط١٥، ١٤٠٤هـ.

٢- أبو على القالي، الأمالي، دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ .

٣- ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، دار ابن حزم، ط١، ١٤٠٥ هـ .

٤- ابن قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، ١٩٦٩م .

٥- ابن منظور، لسان العرب، الرسالة، ط١٤ ، ١٤٢٥هـ.

٦- الحصري القيرواني، زهر الآداب تحقيق د. زكي مبارك، دار الفنون .

٧- بدوي طبانة – دراسات في نقد الأدب العربي ، دار الثقافة، ط ٦، ١٣٩٤ هـ.

٨- صلاح عبدالصبور ، مأساة الحلاج، دار الشروق، ١٩٨٥ م.

٩- عبدالرحمن المسعودي، تراثنا العبقري، الخطوة الأولى، ١٤٢٥ هـ.

١٠- علي أحمد سعيد (أدونيس) أغاني مهيار، دار مجلة شعر بيروت ١٩٦١ م .

١١- علي أحمد سعيد (أدونيس) الثابت والمتحول، ٢٠١٦/٢ دار آداب ١٦٨١ م .

١٢- علي مكي، إحياء التراث العالمي، دار الآفاق، ط١،٢٠٠١م.

١٣- محمد الصامل، المدخل إلى بلاغة أهل السنة، دار إشبيلية، ط ١، ١٤١٨ هـ.

١٤- محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، دار الفكر.

١٥- محمود شاكر، أباطيل وأسمار، جامعة الإمام ١٤٠٥هـ.

١٦- محمود شاكر، نمط صعب ونمط مخيف، دار الرسالة، ١٤٠٥ هـ.

١٧- مسعود الماحي، أعلام الثورة في التراث، دار القلم، ١٤٢٢ هـ.

١٨- ميخائيل عيد، أغاني الحلاج، دار بيروت، ١٩٨١ م .

١٩- نجيب الكيلاني، عمر يظهر في القدس، دار الرسالة، ١٣٩٨ هـ.

٢٠- وليد الأعظمي، السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني، دار النشر الدولي، ١٤١٤ هـ.